

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ ۖ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

[البقرة: 204 - 207]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

الحجّ من العبادات التي تكشف عن خبايا القلوب:

لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة عبادة الحج التي تطهّر القلوب، وتغفر الذنوب، وذكر أصناف الناس في أدعيتهم التي تكشف عن خبايا قلوبهم، وأنّ منهم من يطلب الدنيا، ولا غاية له وراءها، ومنهم من يطلب حسنة الدنيا والآخرة والوقاية من النار، أتى هنا بذكر صنفين آخرين؛ أولهما منافق حلو المنطق مظهر للود، يخالف ظاهره باطنه، يبذل دينه لطلب الدنيا، وثانيهما من يقصد رضا الله تعالى، ويبذل نفسه وماله ودنياه في سبيل ذلك، ولما كان ذكر الحالتين بعد ذكر الحشر في الآيات ربّما أوهم أن يكون القول أو الإعجاب، واقعاً في حالة الحشر، اقتضت دقة السياق تقييده بالحياة الدنيا، فهو فيها لا يزداد إلا تحسناً لقوله، وتقبيحاً لما يخفى من فعله، وأمّا في الآخرة فسوف تجلّى الضمائر وتبلى السرائر، وحينها تنكشف الخبيئة، ويظهر كلام المنافق على حقيقته غير حسن ولا معجب وشتان بين الحالين⁽¹⁾.

المناسبة بين
أثر الحج في
التطهير ووجود
المنافق الخاطيء،
والمخلص البصير

(1) الفيومي، الصباح المنير: 2/695، وعباس حسن، النحو الوافي: 1/137-138، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/66، وفاضل السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني، (كتاب بترقيم الشاملة آليا).

❁ شرح المفردات:

العَجَبُ: انْفِعَالٌ
نَفْسِيَّ عِنْدَ أَمْرِ
يَخْفَى سَبَبُهُ

(1) ﴿يُعْجِبُكَ﴾: مَنْ الإِعْجَابُ إِيجَادُ الْعَجَبِ فِي النَّفْسِ، وَالْهَمْزَةُ فِيهِ لِلنَّعْدَى، وَالْعَجَبُ: انْفِعَالٌ يَعْزِضُ لِلنَّفْسِ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ أَمْرٍ غَيْرِ مألُوفٍ خَفِيَ سَبَبُهُ، وَلَمَّا كَانَ شَأْنٌ مَا يَخْفَى سَبَبُهُ أَنْ تَرَعَبَ فِيهِ النَّفْسُ، صَارَ الْعَجَبُ مُسْتَلْزَمًا لِلِاسْتِحْسَانِ فَيُقَالُ: أَعْجَبَنِي الشَّيْءُ بِمَعْنَى أَوْجَبَ لِي اسْتِحْسَانُهُ، فَيُقَالُ فِي الْإِسْتِحْسَانِ: أَعْجَبَنِي كَذَا، وَفِي الْإِنْكَارِ: عَجِبْتُ مِنْ كَذَا، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ أَيَّ يَحْسُنُ عِنْدَكَ قَوْلُهُ⁽¹⁾.

الأَلَدُ الْخِصَامُ بِمَاجِكُ فِي الْخُصُومَةِ، وَيَشْتَدُّ فِي الْمِرَاءِ:

(2) ﴿أَلَدُ الْخِصَامِ﴾: مَعْنَى اللَّفْظَيْنِ مُرْتَبِطٌ بِوُجُودِهِمَا مَعًا، الْأَلَدُ: الْخَصِيمُ الشَّدِيدُ التَّأَبِّي، وَجَمْعُهُ: لُدٌّ، وَأَصْلُ الْأَلَدِ: الشَّدِيدُ اللَّدَدُ، أَيُّ: صَفْحَةُ الْعُنُقِ، وَفُلَانٌ يَتَلَدَّدُ، أَيُّ: يَتَلَفَّتْ، أَوْ مُشْتَقٌّ مِنْ لَدِيدِي الْإِنْسَانِ وَهِيَ جَانِبُ الْفَمِ، لِأَنَّ الْمَخَاصِمَ لَكَ كُلَّمَا أَخَذْتَ فِي جَانِبٍ أَخَذَ فِي جَانِبٍ آخَرَ مِنَ الْجِدَالِ، فَالْأَلَدُ: الْخَصِيمُ الْجَدِلُ الشَّحِيحُ الَّذِي لَا يَرْجِعُ إِلَى الْحَقِّ مَهْمَا بَانَ لَهُ بِطُلَانُ رَأْيِهِ⁽²⁾.

ولفظ ﴿الْخِصَامِ﴾: وَالْخَصِمُ مُصَدَّرُ خَصَمْتُهُ، أَيُّ: نَارَعْتَهُ خَصَمًا، يُقَالُ: خَاصَمْتُهُ وَخَصَمْتُهُ مُخَاصَمَةً وَخِصَامًا، وَ﴿الْخِصَامِ﴾ مُصَدَّرُ كَالْمَخَاصِمَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]، ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [التغرف: 18]، ثُمَّ سُمِّيَ الْمَخَاصِمُ خَصَمًا، وَأَصْلُ الْمَخَاصِمَةِ: أَنْ يَتَعَلَّقَ كُلُّ وَاحِدٍ بِخَصْمِ الْآخَرِ، أَيُّ جَانِبِهِ، وَأَنْ يَجْذِبَ كُلُّ وَاحِدٍ خَصْمَ الْجَوَالِقِ مِنْ جَانِبِ، وَالْجَمْعُ خُصُومٌ وَأَخْصَامُ. وَالْخُصُومَةُ: الْمَنَارَعَةُ. وَالْخَصِيمُ: الْكَثِيرُ الْمَخَاصِمَةِ، قَالَ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [التحل: 4]، وَالْخَصِمُ: الْمُخْتَصُّ بِالْخُصُومَةِ، قَالَ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [التغرف: 58]⁽³⁾.

(1) الزَّاعِبُ، لِلْفُرْدَاتِ: (عَجَبَ)، وَأَبُو حَتَّانَ، الْبَحْرُ لِلْحَيْطِ: 2/316، وَابْنُ عَاشُورَ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 2/266، وَالْخَازِنُ، لِبَابِ التَّأْوِيلِ: 1/136.

(2) الزَّاعِبُ، لِلْفُرْدَاتِ: (لَدَدَ)، وَالسَّمِينُ، عَمْدَةُ الْحَقَاطِ: (لَدَدَ)، وَابْنُ عَطِيَّةَ، الْحَزَرُ الْوَجِيزُ: 1/279، وَجِبِلَ، الْعَجْمُ الْإِسْتِقَافِيُّ لِلْوُضَلِ: (لَدَدَ).

(3) الزَّاعِبُ، لِلْفُرْدَاتِ: (خَصَمَ)، وَالسَّمِينُ، عَمْدَةُ الْحَقَاطِ: (خَصَمَ)، وَجِبِلَ، الْعَجْمُ الْإِسْتِقَافِيُّ لِلْوُضَلِ: (خَصَمَ).

(3) ﴿الْحَرْثُ﴾: مَصْدَرُ حَرَثَ يَحْرُثُ، الحَرَثُ: الإِثَارَةُ وَالتَّفْقِيشُ. ومنه حَرَثَ الْأَرْضَ، وهو إِثَارَتُهَا وَتَطْيِيبُهَا وَشَقُّهَا لِيُبْدَرَ فِيهَا الْحَبُّ، وَيُطْلَقَ عَلَى الْمَحْرُوثِ وهو الْأَرْضُ، وَيُسَمَّى الزَّرْعُ حَرْثًا لِلْمَجَاوَزَةِ وَالتَّنَاسُبِ⁽¹⁾، و"الْحَرْثُ فِي اللُّغَةِ شَقُّ الْأَرْضِ لِلزَّرَاعَةِ، وَيُسَمَّى الزَّرْعُ حَرْثًا لِلْمَجَاوَزَةِ وَالتَّنَاسُبِ، ويدخل سائر الشجر والغراسات في ذلك، حملًا على الزرع"⁽²⁾.

الحَرْثُ هو الزَّرْعُ
سَمِيَ بِذَلِكَ
لِمَجَاوَزَتِهِ الْأَرْضَ
الْمَحْرُوثَةَ

(4) ﴿وَالنَّسْلُ﴾: مَا خَرَجَ مِنْ كُلِّ أَثْنَى مِنْ وَلَدٍ، وَأَصْلُهُ الْخُرُوجُ وَالسَّقُوطُ، وهو مَصْدَرُ نَسَلَ يَنْسُلُ أَي: خَرَجَ بِسُرْعَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: 51]، ومنه: نَسَلَ وَبَرَ الْبَعِيرُ، وَنَسَلَ رِيشُ الطَّائِرِ أَي: خَرَجَ وَتَطَايَرَ، وَقِيلَ: النَّسْلُ الْخُرُوجُ مُتَابِعًا، ومنه: نُسَالُ الطَّائِرُ: مَا تَتَابَعَ سَقُوطُهُ مِنْ رِيشِهِ، وَالنُّسَالَةُ لِلْسَّاقِطِ مِنْهُ، وَسَمِيَ الْوَلَدُ نَسْلًا لِخُرُوجِهِ مِنْ ظَهْرِ الْأَبِ، وَسَقُوطُهُ مِنْ بَطْنِ الْأُمِّ بِسُرْعَةٍ⁽³⁾.

النَّسْلُ
الْإِنَاثُ وَنَتَاجُهَا

(5) ﴿الْفَسَادُ﴾: خُرُوجُ الشَّيْءِ عَنْ حَالِ اسْتِقَامَتِهِ وَكَوْنُهُ مُتَنَفِّعًا بِهِ، وَهَذَا يَشْمَلُ الْعَبَثَ بِالْأَجْهَزَةِ وَالْمُعَدَّاتِ حَتَّى تَتَعَطَّلَ، وَنَقِيضُهُ الصَّلَاحُ، وَالفَسَادُ فِي الْأَرْضِ هَيْجُ الْحُرُوبِ وَالفِتَنِ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ فُسَادَ مَا فِي الْأَرْضِ، وَانْتِفَاءُ الْاسْتِقَامَةِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاسِ وَالزَّرْعِ وَالْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾، وَالْإِفْسَادُ يَعْمُ إِهْلَاكَ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ وَغَيْرِهِ، فَيَكُونُ فِي الْأَعْيَانِ وَالْمَعَانِي، وَيُسْتَعْمَلُ فِي النَّفْسِ وَالبَدَنِ⁽⁴⁾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾: "معناه لَا يُحِبُّ أَهْلَ الْفُسَادِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَمْدَحُ الْفُسَادَ، وَلَا يَثْنِي

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/280، والزأغب، المفردات: (حرث)، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/402، والسمين، عمدة الحفاظ: (حرث).

(2) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/280.

(3) الزأغب، المفردات: (نسل)، وتفسير الزأغب: 1/428، والسمين، الدرر للصون: 2/353، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/18، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/316.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزأغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، للعجم الاشتقاقى المؤصل: (فسد).

عليه، وقيل إنّه لا يحبّ كونه ديناً وشرعاً، ويحتمل: لا يحبّ العمل بالفساد⁽¹⁾.

(6) ﴿الْعِزَّةُ﴾: "العِزَّةُ في اللغة المنفعة والغلبة كما يقال: من عزَّ بَزَّ، أي من غلب سلب، ويقال: عزَّ الشيء إذا اشتدَّ وجوده⁽²⁾، والعِزَّةُ: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، ولفظها يدلُّ على شدَّة وقوَّة وما ضاهاهما، مِنْ غَلَبَةٍ وَقَهْرٍ، والعزیز: الغالب الممتنع على مَنْ يريده بالقهر والغلبة، والباري تعالى أغلب الغالبين فهو يَقْهَرُ ولا يَقْهَرُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: 26]، وقد تُستعارُ العِزَّةُ للحمية والأنفة المذمومة، وذلك في قوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾⁽³⁾.

(7) ﴿جَهَنَّمَ﴾: اسم علم للنَّار، يقال: برَّ جَهَنَّمَ، وجَهَنَّمَ (بتثنية الجيم): بعيدة القعر، ومنه اشتقاقها، والمشهور عند النحاة أنَّها عريضة، وأنَّ منعها من الصَّرفِ للعلمية والتأنيث، ووزنها فَعْلٌ، واختلف في نونها بين الزيادة والأصالة، وقيل: هي اسمٌ لجميع نارِ الطبقات السَّبع، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ [الحجر: 43 - 44]⁽⁴⁾، ومعنى الآية: "فحسبهُ جهنَّم، كافيه الجحيم، جزاءً له وعذاباً، يقال: حسبك كذا أي: كفاك⁽⁵⁾."

(8) ﴿الْمِهَادُ﴾: (مَهَدٌ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَوَطُّئَةٍ وَتَسْهِيلٍ لِلشَّيْءِ، وَمِنْهُ مَهْدُ الصَّبِيِّ: موضعه الذي يُهَيَّأُ له وَيُوَطَّأُ لِنَامٍ فِيهِ، وَمَهْدَتُ الْأَمْرِ: وَطْأَتُهُ، وَالْمِهَادُ: الْوِطَاءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقِيلَ لِكُلِّ وَطِيٍّ مَهْدٌ، وَالْمِهَادُ جُعِلَ تَارَةً جَمْعًا لِلْمَهْدِ، وَتَارَةٌ مُفْرَدًا بِمَعْنَى الْفِرَاشِ، فَالْمِهَادُ

العزیز يُغْلَبُ ولا
يُغْلَبُ، وَيَقْهَرُ
ولا يَقْهَرُ

جَهَنَّمَ اسمٌ للنَّارِ
بعيدة القعر،
عميقة القرار

المهاد المَعْدُ
في جهنم
للمفسدين
يكون لهم جزاءً
وفاقاً

(1) الماوردي، التكت والعيون: 1/266.

(2) السمرقندي، بحر العلوم: 1/348.

(3) ابن فارس، معاني اللغة: (عز)، والزَّاعِب، الفردات: (عز)، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (عز).

(4) الزَّاعِب، الفردات: (جهنم)، وأبو حيان، البحر الحيط: 2/317، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (جهن)، وجبل، المعجم الاشتقاقي للوُضَل: (جهنم).

(5) الواحدي، الوسيط: 1/311.

كالفراش، والمهد كالفرش، وزناً ومعنى، وجعل جهنم مهاداً لهم تهكماً بهم، أي: ولبيس الفراش الذي يستقر عليه بسبب غروره⁽¹⁾، وقيل لجهنم (مهاد) على وجهين: أحدهما: أن يكون تقديره: بئس موضع المهاد، وقيل: لأنها لهم بدل المهاد سميت باسمه، كما جاء: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]⁽²⁾.

لفظ ﴿يَشْرِي﴾ من الأضداد، والشراء والبيع متلازمان عادة:

(9) ﴿يَشْرِي﴾: الشري: من الأضداد، يُقال: شَرى، إذا باع. وَشَرى: إذا اشترى، قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] قيل: معناه باعوه؛ على أن الضمير المرفوع لإخوة يوسف، وقيل: هو على بابِه بمعنى اشتروه؛ على أن الضمير للسيارة، وقال بعضهم: الشراء والبيع متلازمان؛ فالشري دافع الثمن وأخذ الثمن؛ هذا إذا كانت المبيعة والمشاركة بناض وسلعة، فأما إذا كانت بيع سلعة بسلعة، صح أن يتصور كل واحد منهما في موضع الآخر، إلا أن شريت بمعنى بعت أكثر، وابتعت بمعنى اشتريت أكثر، والأصل في هذا المماثلة، وقد جاء معنى الشراء المشهور، للمماثلة بين المشتري وثمانه، في القيمة. ومعنى قوله تعالى: ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ أي: يبيعها، ومعنى بيع النفس ههنا: بذلها لأوامر الله وما يرضاه، وكل ما جاء في القرآن الكريم من الفعل (شري يشري)، فالمراد به البيع⁽³⁾.

✽ المعنى الإجمالي:

هذه الآيات تذكر صنفين من الناس، بعد أن ذكرت الآيات السابقة صنفين منهم، فالصنف الأول هنا: هو ما يسمى بأهل النفاق الذين يُظهرون الإسلام ويُخفون الكفر؛ وجاء من أوصاف هذا الصنف المنافق: أنه حلو اللسان، يُعجب منطق السامعين، وأنه يؤكد كلامه بالأيمن الكاذبة، وفي هذا غاية الجرأة على الله، وأنه فاجر مخاصم لدود في خصوصته للإسلام والمسلمين، وأنه مُفسد في الأرض، يُعطل الحياة، ويهلك الحرث والنسل، وإذا نُصح يأنف ويتكبر، ولا يقبل النصيحة، فهذا حسبُه أن تكون جهنم له فراشاً ومهاداً ومأوى، وهناك صنف آخر: هو صنف الأخيار الصالحين المصلحين من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهد)، والراغب، تفسير الراغب: 1/429، والسمين، عمدة الحفاظ: (مهد).

(2) أبو بكر بن فورك، تفسير ابن فورك، من أول سورة المؤمنون إلى آخر سورة السجدة: 2/297.

(3) الجوهرى، الصحاح: (شري)، والراغب، المفردات: (شري)، والواحدى، الوسيط: 1/312، والسمين، عمدة الحفاظ: (شرو)، وجبل،

اللعجم الاشتقاقي للوصل: (شري).

الَّذِينَ يَبِيعُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، طَالِبِينَ رِضَاهُ؛ فَيَقْدِرُ دِينَ اللَّهِ وَالْحَقَّ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَكُلُّ مَا يَمْلِكُ، حَتَّىٰ وَإِنْ تَعَرَّضَ لِلْأَذَىٰ أَوْ التَّلَفِ، أَوْ الِاسْتِشْهَادِ⁽¹⁾، وَالْآيَاتِ تَخَاطَبُ النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ يَتَأْتَىٰ خَطَابُهُ، فِي بَيَانِ هَذَا الصَّنَفِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ الْمَوَدَّةَ وَالْمُوَافَقَةَ، وَإِذَا تَوَلَّوْا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، فَكَانَتْ فِعَالُهُمْ مَخَالَفَةً لِأَقْوَالِهِمْ، وَقَابَلَ هَذَا بِالصَّنَفِ الْآخَرِ الَّذِي يَقْصِدُ وَجْهَ اللَّهِ وَيَبِيعُ نَفْسَهُ وَدُنْيَاهُ فِي طَلَبِ عَفْوِهِ وَرِضَاهُ.

❁ الإِيضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالْبَلَاغِيُّ:

بلغة عطف الجملة على الجملة، وأثرها في تقسيم الناس:

تنوع أحوال
الناس بين
منافق لئيم
ومخلص يبتغي
مرضاة الرؤوف
الرحيم:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مفتحة بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾، الواو عاطفة على قوله: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 200]؛ "لأنه ذكر هنالك حال المشركين الصرحاء الذين لا حظ لهم في الآخرة، وقابل ذكرهم بذكر المؤمنين الذين لهم رغبة في الحسنة في الدنيا والآخرة، فانتقل هنا إلى حال فريق آخرين ممن لا حظ لهم في الآخرة وهم متظاهرون بأنهم راغبون فيها، مع مقابلة حالهم بحال المؤمنين الخالصين الذين يؤثرون الآخرة والحياة الأبدية على الحياة في الدنيا، وهم المذكورون في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 207]" (2).

معنى التبعض في (من) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾: (من) للتبعض، أي: وبعض الناس، والتبعض هنا للتحقير، وهو مستفاد من سياق الذم الوارد فيه.

دلالة اللام في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾:

الألف اللام في ﴿الناس﴾، تكون للعهد إذا حملت الآية على من نزلت فيهم، أو للجنس إذا كانت عامة فيمن نزلت فيهم وفيمن

(1) الخفاجي، عناية القاصي: 2/293، ونخبة من العلماء، التفسير للبسر: ص: 32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/265.

يشملهم حكمها، وهذا شأن الآيات تنزل في خصوص حادثة أو سؤال، ثم تكون عامّة فيما تنطبق عليه، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

غاية التعبير بالاسم الموصول التشويق إلى الخبر المقول:

﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُعْجِبْكَ قَوْلُهُ﴾ اسمٌ موصولٌ، ويجوز أن تكون نكرة موصوفة أي: ومن الناس ناسٌ، يعجبك قولهم⁽¹⁾، وهي في محلّ رفع مبتدأ، خبرها الجارّ والمجرور قبلها، وتقديم الخبر للتشويق إلى استعمال المبتدأ، فقوله: ﴿وَمِنْ النَّاسِ﴾ مؤذّنٌ بأنّه ستساق فيهم قصّة ... و﴿مَنْ﴾ من الأسماء الموصولة التي لفظها مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ دَائِمًا، وتَطَلَّقُ عَلَيْهِ فُرُوعُ الْمُفْرَدِ والمُذَكَّرِ، إذا كَانَ مَعْنَاهَا كَذَلِكَ؛ فَتَارَةً يُرَاعَى اللَّفْظُ، فَيَفْرَدُ مَا يَعُودُ عَلَى (مَنْ) مُذَكَّرًا، وتَارَةً يُرَاعَى الْمَعْنَى فَيَحْمَلُ عَلَيْهِ⁽²⁾، وقد روعي اللفظ هنا، فجاءت الضمائر العائدة عليه بعده بصيغة المفرد.

ويأتي الاسم الموصول عندما تكون صلته، هي التي عليها مدار الحكم، كما أنّه يثير في النفس الشوق إلى معرفة الخبر، فصلة الموصول هنا إعجاب القول لسامعه: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبْكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وما عطف عليه، والغرض ذم من يتصف بذلك، إذ يتجه الذم إلى الفعل دون الفاعل، ليترك لفاعله فرصة اجتنابه، ويدعوه إلى تركه واجتنابه، وجاء بعده قوله: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، ليكون في مقابلته، حتّى تكون الموازنة قويّة جليلة، تدفع إلى العمل الصالح ابتغاء مرضاة الله، وسبب النزول مدرج في كثير من كتب التفسير وكتب أسباب النزول، ومردّه على

من عادة القرآن
أن يذمّ الفعل
لا الفاعل، رجاء
إقلاعه عنه
وتفاديه

(1) العكبري، التبيان: 1/166، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/88.

(2) أبو حيان، المصدر السابق: 1/89.

خلاف إلى قصّة الأحنس بن شريق، أو سرّية الرّجيع، وكلاهما مبسوط في مظانّه⁽¹⁾.

بلاغة التّعبير بصيغة الفعل المضارع:

تصوير الإعجاب في المستقبل

معنى الإعجاب هو إيجاد العجب في النّفس، وهو مستلزم للاستحسان، أي: يحسّن عندك قوله⁽²⁾، وجاء المسند إليه ضميراً مقدّماً على فاعله استقباحاً لذكره باسمه، وجاء قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُكَ﴾ ماضياً في المعنى، مضارعاً في اللفظ للتّصوير والتّحقيق، كأنّه مُشاهد للعيان، وعلى (العموم)، فهو مستقبل حقيقة⁽³⁾، وفي قوله: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ إشارة إلى أنّ له قولاً آخر ليس بهذه الصّفة⁽⁴⁾، لكنّه يحترز من إظهاره أمام المؤمنين، حتّى لا يفتضح أمره.

تعدّد تعلق قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾:

إجادة اللّسان بما يخالف الإيمان بسمه أهل التّفاق

اختلف في تعلق الجارّ والمجرور ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، بأيّ شيء؟ فقيل: متعلّق بقوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ﴾، أي: يعجبك ما يقوله في أمور الدنيا، وأسباب المعاش؛ لأنّه يطلب بادّعاء المحبة حظّ الدنيا، ولا يريد به الآخرة، ومن أحبّ شيئاً أحسن القول فيه، ومن كانت الدنيا همّه أحسن حكاية أمورها، حتّى إنّ قوله فيها ليكون عجيباً مُعجباً.

وقيل: متعلّق بـ ﴿يُعْجِبُكَ﴾، فيكون المعنى: يعجبك كلامهم في الدنيا، وفي الآخرة سيكونون بحالٍ لا يعجبك؛ حيث يكون

(1) يورد أهل التفسير أنّ هذه الآية وما بعدها، نزلت في الأحنس بن شريق، وكان خلّو اللسان والنّظر، يجالس رسول الله ﷺ، ويظهرُ حُبّه والإسلام، ويخلف على ذلك، فكان يُدنيه ولا يعلم ما أضمر، وكان من ثقيف خليفاً لبني زُهرة، فحرق بينه وبين ثقيف شيء، فبيّتهم ليلاً وأحرق زرعهم، وأهلك مواشيهم وقال ابن عباس: نزلت في قحار قرظيش، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا قد أسلمنا، فأبعث إلينا من يعلمنا دينك، وكان ذلك مكراً منهم، فبعث إليهم حبيباً، ومرشداً، وعاصم بن ثابت، وابن الذئبة، وعزّهم، وتسمّى: سرّية الرّجيع، والرّجيع موضع بين مكة والمدينة، فقبلوا جميعاً وزوّي عن ابن عباس: أنّه حملها على العموم لتشمل هؤلاء المذكورين، وكلّ منافق أظهر على لسانه ما ليس في قلبه، كما جاء عن قتادة وغيره في المنافقين، قالوا عن سرّية الرّجيع: ونح هؤلاء ما قعدوا في ثبوتهم، ولا أدّوا رسالة صاحبهم! ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/279، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/325.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/266.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 248- 1/249، والخفاجي، غناية القاضي: 1/302.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/210.

الحكم للظاهر، ولا يُتَقَبُّ عن القلوب والسرائر، أمّا الآخرة فالحكم فيها علام الغيوب الذي يعلم ما تُخفي الصدور، فلا سبيل للخديعة بالقول.

وهذا الذي يتفق مع السياق؛ إذ إنَّ السياق في بيان الذين يخدعون النَّاس في الدنيا وقلوبهم مريضة، لا بيان حال مَنْ يُجيدون القول فيها، وإنَّ بعض الذين يجيدون القول في الدنيا أحياناً لا أشرار⁽¹⁾.

دلالة القسم في قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾:

معنى إَشْهَادِ اللَّهِ في قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي: حلفه بأنَّ الله يَعْلَمُ إِنَّهُ لَصَادِقٌ؛ وذلك لما يعتري سامعه من ريبة في صدق حاله ومقاله، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ [التوبة: 62]، أي يقول حالفاً: الله يعلم أنني أقول حقاً، الله يعلم أن ما في قلبي موافق لما في لساني، وهو يجادل في ذلك ويخاصم، وجاء في قراءة تفسيرية لأبي وابن مسعود رضي الله عنهما: (وَيَسْتَشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ)⁽²⁾، ومن ألفاظ القسم: (الله يعلم أنني فعلت كذا)، أو (الله يشهد أنني قلت كذا)؛ فهذا تأكيد بالآيمان معروف في لغة العرب، والحلف على هذا النحو أوكد وأوثق من القسم الصريح⁽³⁾.

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ﴾:

تحتل الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ﴾ أن تكون حاليةً، والجملة في محل نصبٍ على الحال، وهذا ممّا استُدرك على قول الجرجاني: "جملة الحال والفعل مضارعٌ مثبتٌ غير منفيٍّ، لا تكادُ تجيءُ بالواو"⁽⁴⁾، ولهذا أمثلة أخرى⁽⁵⁾.

عندما تضحّل
ثقة المرتاب،
يوثق أباطيئه
بالآيمان الكذاب

احتمال
معنى الحال
والاستئناف
والعطف

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/636.

(2) الراغب، تفسير الزاغب: 1/428، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/279.

(3) أبو زهرة، المصدر السابق: 2/637.

(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/674.

(5) محمّد عزيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 3/586.

وتحتمل أن تكون الواو استثنائية، والجملة بعدها مستأنفة لا محل لها، ويجوز أن تكون الواو عاطفة جملة ﴿وَيُشْهِدُ﴾ على جملة ﴿يُعْجِبُكَ﴾⁽¹⁾، وذلك لاتحادهما في الخبرية.

بلغة الاستعارة في لفظ الألد:

استعير الألد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ للجِدَل الشَّدِيد الخصومة المغالب فيها، الذي يلوي الحُجَج في كلِّ جانب، والألدُّ: هو المائل، اللديد، أي: المائل صفحة العنق؛ فيشبهه انحرافه واعوجاجه المشي في ليدَي الوادي⁽²⁾، قال الزجاج: "والمعنى فيه، أن الله عالم بما يُسرُّه، فأعلم الله ﷻ النَّبِيَّ ﷺ حقيقة أمر هذا المنافق وقال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، ومعنى خَصَمٌ ألدُّ في اللغة: الشَّدِيد الخصومة والجَدَل، واشتقاقه من لَدَيْ العُنُق، وهما صفحتا العنق، وتأويله، أن خصمه في أي وجه أخذ - من يمين أو شمال - من أبواب الخصومة غلبه في ذلك"⁽³⁾.

معنى الصفة المشبهة في لفظ ﴿أَلَدُّ﴾:

صيغة ﴿أَلَدُّ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وَلَيْسَ اسْمٌ تَفْضِيلٌ، وَتَكُونُ إِضَافَتُهُ لِلْخِصَامِ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فَجَعَلَ الْخِصَامَ أَلَدًّا، أَيُّ: نُزِلَ خِصَامُهُ مَنْزِلَةً شَخَّصَ لَهُ خِصَامٌ، فَصَارَا شَيْئَيْنِ؛ فَصَحَّتِ الْإِضَافَةُ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ، كَأَنَّهُ قِيلَ: خِصَامُهُ شَدِيدُ الْخِصَامِ، كَمَا قَالُوا: جُنَّ جُنُونُهُ وَقَالُوا: جَدَّ جَدُّهُ، أَوْ تَكُونُ الْإِضَافَةُ عَلَى مَعْنَى (فِي) أَيُّ: وَهُوَ شَدِيدُ الْخِصَامِ فِي الْخِصَامِ، أَيُّ: فِي حَالِ الْخِصَامِ، هَذَا عَلَى اعْتِبَارِ الْخِصَامِ مُصَدَّرًا، أَمَّا إِنْ اعْتَبَرْنَا الْخِصَامَ جَمْعًا فَالْإِضَافَةُ ظَاهِرَةٌ لَا إِشْكَالَ فِيهَا، أَيُّ: وَهُوَ أَلَدُّ النَّاسِ الْمُخَاصِمِينَ⁽⁴⁾.

تصوير
الخصومة
الشديدة بصورة
حسية مشاهدة

اللد مبالغة
في الخصومة
ومغالبة
في الحاورة
والناظرة:

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/423.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/427.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/277.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/267.

معنى ﴿الْخِصَامِ﴾ بين المصدريّة والجمع:

الخصام: إمّا أن يكون مصدر خاصم أي جادل، أو جمع خَصَمَ كَضَخَمَ وضَخام؛ والمعنى: أن هذا النوع من الناس الذي يحاول أن يخدع الناس بحُلُوِّ لسانه، ويُضِلُّهم بقدرته بيانه، فيه طَبَعٌ ملازمٌ له، وهو شدّة الخصومة والجدل، والمغالبة البيانية، في ميدان المناظرات. ومَن يكن همُّه الجدل، لا يعنيه الحقُّ بمقدار ما يعنيه انتصارُ فِكْرِهِ، وغلبته في ميدان النِّزال البياني؛ فيندفع إلى تأييد مذهبه بالحقِّ وبالباطل؛ لذلك كان مَبْعُضًا إلى الله، وقد جاء في الحديث: "إِنَّ أَبْعَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ" (1).

المعاني الاشتقاقية للفظ ﴿تَوَلَّى﴾:

التَّوَلَّى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ يحتمل أن يكون مشتقًا من أحد أمرين:

الأول: إمّا أن يكون مُشْتَقًّا مِنَ التَّوَلَّى، وهي الإِدْبَارُ والانْصِرَافُ، أي: وإذا فارقَكَ سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ، وذلك بعد أن خدع الناس بحُلُوِّ القول، وأقسم بالأيمان المغلطة الكاذبة، وجادل فيما يدّعيه من حبه للخير والإصلاح، ومُتَعَلِّقٌ ﴿تَوَلَّى﴾ حينئذٍ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ تَوَلَّى عَنْكَ. الثاني: وإمّا أن يكون مُشْتَقًّا مِنَ الْوَلَايَةِ: يُقَالُ وَلِيَ الْبَلَدَ وَتَوَلَّاهُ، إذا صارَ وَالِيًا، أي: إذا تَزَعَّمَ وَرَأَسَ النَّاسَ سَعَى فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ، والآية الكريمة تحتمل الأمرين (2)، ولقوله تعالى: ﴿تَوَلَّى﴾، أربعة أقوال: أحدها: أنّه بمعنى: غضب، والثاني: أنّه الانصراف عن القول الذي قاله، والثالث: أنّه من الولاية، فتقديره: إذا صارَ وَالِيًا، والرابع: أنّه الانصراف بالبدن (3)، وفي كل ذلك إِدْبَارٌ وانْصِرَافٌ

صاحبُ الجدل
يؤثرُ هواه على
انتصار الحقِّ في
عَلَّاه

مدارُ معنى
التَّوَلَّى على الكِبَرِ
والإِدْبَارِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/638 - 640، والحديث أخرجه البخاري، حديث رقم: (2457)، ومسلم، حديث رقم: (2668).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/268، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/642.

(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/171.

بحال المضادة وعدم التوافق أو هي تبدل واستكاف واستكبار حال تولي الولاية فينصرف من تواضعه إلى الكبر والصلف والظلم.

سُرُّ التَّعْبِيرِ بِالسَّعْيِ دُونَ الْمَشْيِ أَوْ السَّيْرِ:

استعمل السَّعْيُ في قوله تعالى: ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ والسَّعْيُ حَقِيقَتُهُ الْمَشْيُ السَّرِيعُ، ومنه قيل: السَّعْيُ بَيْنَ الصِّفَا والمروة⁽¹⁾، للدلالة على معنى الإفساد في الأرض، أَي: ذَهَبَ يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ غَازِيًا وَمُغِيرًا لِيُفْسِدَ فِيهَا، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا مَا فَعَلَهُ الْأَخْنَسُ بن شَرِيْق بِحَرْقِ الزُّرُوعِ وَقَتْلِ الْمَوَاشِي وَفِي قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، السَّعْيُ: هُوَ الْعَمَلُ، لَا السَّعْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: قَالَ زَهِيرٌ:

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يَذْرُكُوهُمْ *** فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يَلِيْمُوا وَلَمْ يَأْلُوا⁽²⁾
ويُلمح في ﴿سَعَى﴾ التَّشْبِيهُ الضَّمْنِي⁽³⁾ بِتَشْبِيهِ الْمُنَافِقِينَ فِي عَمَلِهِمْ بِعِزْمٍ وَإِصْرَارٍ وَحِرْصٍ بِالْمَاشِي السَّرِيعِ، بِجَامِعِ الْوُصُولِ إِلَى غَايَةٍ مَعْيَنَةٍ، وَهِيَ الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ وَتَخْرِيْبُ نِظَامِهَا الَّذِي بِهِ قَوَامُ حَيَاةِ النَّاسِ، وَجَوُزُ أَنْ يَكُونَ سَعَى مَجَازًا فِي الْإِرَادَةِ وَالتَّدْبِيرِ، أَي: دَبَّرَ الْكَيْدَ وَأَرَادَ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ.

بَلَاغَةُ اسْتِعْمَالِ حَزْفِي الظَّرْفِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾:

استعملت الآية حَرْفِي الظَّرْفِيَّةِ لِلْبَيَانِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ، فَقَوْلُهُ: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَذْلُولِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَتَنْصِيصٌ عَلَى أَنَّ هَذَا السَّعْيَ هُوَ السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ لِلْفَسَادِ، وَهُوَ الْغَارَةُ وَالتَّلَصُّصُ لِغَيْرِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ فَاللَّامُ لِلتَّغْلِيلِ، لِأَنَّ الْإِفْسَادَ مَقْصُودٌ لِهَذَا السَّاعِي، وَتَوْحِي عِبَارَةٌ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَنَّ فُسَادَهُ

يُسْتَعْمَلُ
السَّعْيُ مَجَازًا
فِي تَذْبِيرِ الْكَيْدِ،
وَإِرَادَةِ الْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ

سَعْيُ الْفَاسِدِ
لَا يَقْتَصِرُ عَلَى
مَوْضِعٍ بَعِيْنِهِ،
بَلْ يَشْمَلُ الْأَرْضَ
كُلَّهَا

(1) الرأغب، تفسير الزاغب: 1/428.

(2) الشافعي، تفسير الشافعي: 1/323.

(3) التشبيه الضمني: هو ما لم يُصرح فيه بأركان التشبيه على الطريقة المعلومة، بل يفهم من معنى الكلام، وسباق الحديث، ينظر:

أحمد الراعي، علوم البلاغة، ص: 234.

استشري وعمّ الأرض كلها، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مُتَعَلِّقًا بِسَعَى لإِفَادَةِ أَنَّ سَعْيَهُ فِي أَمْرِ مِنْ أُمُورِ أَهْلِ أَرْضِكُمْ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ إِعَادَةُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ بَيَانًا لِإِجْمَالِ قَوْلِهِ: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مَعَ إِفَادَةِ التَّكْيِيدِ⁽¹⁾، قَالَ الْحَرَّالِيُّ: وَلَمَّا كَانَتِ الْأَرْضُ مَوْضُوعَةً لِلنَّشْءِ مِنْهَا وَفِيهَا، وَمَوْضِعُ ظُهُورِ عَامَةِ الصُّورِ الرَّابِيَةِ اللَّازِمَةِ الْجَسْمِيَّةِ، وَمَحَلٌّ تَنْشُؤِ صُورَةِ النَّفْسِ بِالْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ، وَكَانَ الْإِفْسَادُ نَقْضُ الصُّورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝٥٥﴾، كَانَ فَعْلُهُمْ فِيهَا مِنْ نَحْوِ فَعْلِهِمْ فِي وَضْعِ الضِّدِّ السَّيِّئِ مَوْضِعَ ضِدِّهِ الْأَكْمَلِ، وَالتَّقْصِيرِ بِمَا شَأْنُهُ التَّكْمَلَةُ، فَكَانَ إِفْسَادًا لِدَلَالَتِهِ⁽²⁾.

نوع العطف في قوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾:

عُطِفَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، وَهُوَ مِنْ عُطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ⁽³⁾؛ لِأَنَّ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ يَشْمَلُ إِهْلَاكَ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ، وَقَدْ خَصَّهْمَا بِالذِّكْرِ: "لِأَنَّهُمَا أَعْظَمُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي عِمَارَةِ الدُّنْيَا، فَكَانَ إِفْسَادُهُمَا غَايَةَ الْإِفْسَادِ"⁽⁴⁾، وَلِأَنَّ فِيهِمَا جَمَاعَ حَاجَاتِ بَنِي الْإِنْسَانِ، فَمَا مِنْ أَمْرٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فِي مَقُومَاتِ جِسْمِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ الْحَيَوَانِ أَوْ مِنَ النَّبَاتِ، وَهَلَاكُهُمَا كُنَايَةٌ عَنِ الْخَرَابِ الْعَامِّ، وَضِيَاعِ الْمَصَالِحِ⁽⁵⁾.

المقصودُ بإهلاكِ الحرثِ والنَّسلِ:

الْحَرْثُ: مَصْدَرُ حَرَثَ يَحْرُثُ؛ بِمَعْنَى أَثَارَ الْأَرْضَ لِإِعْدَادِهَا لِلزَّرْعَةِ، ثُمَّ أُطْلِقَ وَأُرِيدَ بِهِ الْمَحْرُوثُ وَهُوَ الْأَرْضُ نَفْسُهَا، ثُمَّ أُطْلِقَ

تخصيصُ
المعطوفِ عليه
بأحدِ أنواعِهِ
للتَّنْبِيهِ عَلَى
عَظَمِهِ

كنابةٌ عن
الخرابِ العامِّ،
وضياعِ المصالحِ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/268 - 269.

(2) الحرَّالِيُّ، تراث أبي الحسن الخَزَّالِيِّ المراكشي في التفسير، ص: 180.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/250.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/330.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/641.

وأريد به ثمرات الحرث، وهو الزرع الذي حان حصاده، والثمر الذي أتى أكله؛ والمراد به هنا ذلك⁽¹⁾، والنَّسْل في أصله: مصدر نسل ينسل، بمعنى خرج وسقط، ثم أطلق على خروج الحيوان من بطن أمه وولادته، ثم أطلق وأريد به ذات الحيوان الوليد⁽²⁾.

و﴿الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ﴾ وإن كانا في الأصل مصدرين، فإنهما هنا واقعا موقع المفعول به⁽³⁾، وإهلاك الحرث والنَّسْل، كناية عن اختلال ما به قوام أحوال الناس، وكانوا أهل حرث وماشيّة، فليس المراد خصوص هذين بل المراد ضياع ما به قوام الناس، وهذا أعم وأشمل، والآية دالة على أن من يتسبب في مثل ذلك صريحا أو كناية، مُستحق للعقاب في الآخرة، ولذلك عقب بجملة التذليل وهي ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ تحذيرا وتوبيخا⁽⁴⁾.

بلغة الفاصلة القرآنية: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾:

بيان المقاصد
الشَّرعية في
تطبيق الحكمة
الإلهية

مَعْنَى نَفْيِ الْمَحَبَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ نَفْيُ لَازِمِهَا وَهُوَ الرِّضَا بِالْفُسَادِ، وَالْفُسَادُ ضِدُّ الصَّلَاحِ، وَمَعْنَى الْفُسَادِ: إِخْرَاجُ الشَّيْءِ مِنْ حَالَةٍ مَحْمُودَةٍ لَا لِفَرْضٍ صَحِيحٍ، أَوْ هُوَ إِتْلَافُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِلنَّاسِ، نَفْعًا مَحْضًا أَوْ رَاجِعًا، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ إِتْلَافَ الزَّرْعِ، وَقَتْلَ الْمَوَاشِي فُسَادًا، مَعَ أَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ لِفِغْرِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ إِتْلَافَ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ رُزْءٌ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَفِيهِ تَعْطِيلٌ لِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ لِحِكْمَةِ صَلَاحِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ الْحَكِيمَ لَا يُحِبُّ تَعْطِيلَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ، وَعَلَى هَذَا جَاءَ التَّحْذِيرُ بِعَقُوبَةِ فَاعِلِهِ⁽⁵⁾، وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ تَذْيِيلِيٌّ؛ مَقْرَّرٌ لِمُضْمُونِ مَا قَبْلَهُ، وَقَدْ ذِيلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾، وَذَلِكَ لِأُمُورٍ عَدَّةٍ:

أَوَّلًا: بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ الصَّنَفَ مِنَ النَّاسِ الَّذِي يَخْدَعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/641.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/641.

(3) السمين، الدرر للصون: 2/353.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/270.

(5) الراغب، تفسير الراغب: 1/429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/270.

النَّاسَ وَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، وَيَجَادِلُ وَيُمارِي، وَيَضِلُّ عَنِ بَيِّنَةٍ، وَيَسْعَى فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ؛ إِذْ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْفُسَادَ، وَلَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ رَحْمَتِهِ، مَعْرَضٌ لِنَقْمَتِهِ. ثَانِيًا: بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا يَرِيدُ بِمَا فَرَضَ مِنْ عِبَادَاتٍ، إِلَّا مَصْلَحَةَ النَّاسِ، وَدَفْعَ الضَّرِّ عَنْهُمْ، وَأَنَّ شَرَعَ اللَّهُ كُلَّهُ، أَسَاسُهُ إِقَامَةُ الْمَصْلَحَةِ وَدَفْعُ الْمَضَرَّةِ، فَمَا مِنْ أَمْرٍ شَرَعَهُ اللَّهُ إِلَّا فِيهِ جَلْبٌ نَفْعٍ، أَوْ دَفْعُ ضَرَرٍ، وَأَنَّ دَفْعَ الضَّرَرِ، مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ النَّفْعِ. ثَالِثًا: إِشَارَةُ التَّذْيِيلِ إِلَى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ اسْتَخْلَفَ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ لِيُعْمَرَهَا لَا لِيُفْسِدَهَا ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56] (1).

دلالة البناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾:

جاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ لِلْإِبْهَامِ؛ لِيُصَحَّ أَنْ يُسْنَدَ الْقَوْلُ لِكُلِّ أَحَدٍ، مِمَّنْ يَرَى فُسَادَ الْمَفْسِدِ وَنِفَاقَهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْعِظَةِ وَالنَّصِيحَةِ: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾، وَفِي ذَلِكَ أَمْرٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ لِلْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ أَوْ يَأْمُرُوا الْمَفْسِدِينَ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ امْتِنَالِهِمْ لِلْأَمْرِ، إِذِ الْقَوْلُ هُوَ اسْتِجَابَةٌ لِمَا يُحِبُّ اللَّهُ وَيَرْضَى، وَهُوَ تَسْجِيلٌ عَلَى أَوْلَئِكَ الْمَفْسِدِينَ بِالْفُسَادِ أَمَامَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، لِيُعْلَمَ حَالُهُمْ، فَتُجْتَنَّبَ مَجَالِسُهُمْ.

العلماء
الربانيون
يقولون كلمة
الحق استجابة
لأمر الحق

معنى لام التبليغ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾:

نَوْعُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُ﴾ هِيَ لَامُ التَّبْلِيغِ، وَهِيَ الْجَارَّةُ لِاسْمِ السَّمَاعِ لِقَوْلٍ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ، نَحْوُ: قُلْتُ لَهُ، وَأَذَنْتُ لَهُ، وَفَسَّرْتُ لَهُ (2)، وَمَقُولُ الْقَوْلِ هُوَ: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾، أَي: اتَّقِ عِقَابَ اللَّهِ تَعَالَى، بِتَرْكِ مَا تَبَاشَرَهُ مِنَ الْفُسَادِ أَوْ النِّفَاقِ، وَاحْذَرْ سُوءَ مَغْبِتِهِ.

الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾:

فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ، وَالتَّقدير: (إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ، لَمْ يَتَّقِ، وَأَخَذَتْهُ الْأَنْفَةُ وَالْكَبرياءُ بِمَا يُوْجِبُ الْإِثْمَ)، لِأَنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ فَوْقَ نُصْحٍ

تنبيه على القول
الآثم بذكر علته

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/643.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب: ص: 281.

النَّاصِحِينَ، قال ابن عَرَفَة: "الآية لها منطوق ومفهوم، والتقدير: لم يَتَّقِ لأجل ما نالته (من العِزَّة) بسبب الإثم، واكتفى عن ذلك المفهوم فذكر علته⁽¹⁾، وقال الثَّعلبي: "أي: حملته العِزَّة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والعِزَّة والقوَّة والمنعة، ويقال: معناه أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالْإِثْمِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ"⁽²⁾.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾:

حمية الجاهلية
حُمَقٌ وانغلاقٌ

استعير الأخذ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ للحمل بعد أن شبَّه حالة إغراء حمية الجاهلية، وحملها إياه على الإثم بحالة شخص له حقُّ على غريمه، فبأخذه به ويُلزِمه على أداء حقِّه، وهي استعارة تبعية واقعة على التمثيل⁽³⁾.

استعارة العِزَّة
للأنفة المذمومة

وقد استعيرت العِزَّة للحمية والأنفة المذمومة في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾⁽⁴⁾، (فال) في العِزَّة للعهد؛ أي: العِزَّة المعهودة المعروفة عند أهل الجاهلية التي تمنع صاحبها من قبول النصيحة⁽⁵⁾، والعِزُّ في الأصل القوَّة والشَّدة والغلبة والرِّفعة والامتناع، والعِزَّة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، وهي يُمدح بها تارة، ويُدَّمُّ بها تارة، كعِزَّة الكُفَّار، والعِزَّة التي للكُفَّار هي التَّعَزُّزُ، وفي الحقيقة ذلٌّ لأنه تشبَّع بما لم يُعطه.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِالْإِثْمِ﴾:

اجتماع معنى
المصاحبة
والتعليل في
حرف الباء
من بلاغة
الاستعمال

حرفُ الباء في قوله تعالى: ﴿بِالْإِثْمِ﴾، إمَّا أن يكون بمعنى المصاحبة والاقتران، والمعنى على هذا: أَخَذَتْهُمُ العِزَّةُ واستولت

(1) تفسير ابن عرفة: 1/250.

(2) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 2/124.

(3) الطَّيبي، فروع الغيب: 3/318، والاستعارة التمثيلية: تركيب استعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي، بحيث يكون كلُّ من الشَّبه والمُشَبَّه به هيئة منتزعة من متعدّد، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 275.

(4) الرُّبَيْدِي، تاج العروس: (عزز).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/271.

عليهم، مقترنةً بالإثم مصاحبةً له، فهي ليست عِزَّةً محمودَّةً، بل كبرياء مبغوضة.

أو يكون للسَّبَبِيَّة، بمعنى لام التعليل، ويكون المعنى: أخذتهم العِزَّةُ بسبب الإثم الذي استغرق قلوبهم، وأحاط بنفوسهم، أي: أنَّهم لفرط ما ارتكبوا من آثام، قد أحاطت بهم خطيئاتهم؛ فسدت مسارب الهداية إلى قلوبهم، فإذا سمعوا كلمة الرِّشَادِ لم يتقبلوها، وأنغضوا رؤوسهم، حاسبين أنَّ ذلك إهانةٌ لسلطانهم؛ وإصغارٌ لشأنهم، وما هو في حقيقة الأمر إلا حمايةٌ للسلطان، وإكبارٌ للأمر، وخصوصاً إذا كان من ناصح أمين⁽¹⁾، والمعنيان صحيحان، فإثمهم يُصاحِبُهُم، ويقترنُ بعِزَّتِهِم، وهي عِزَّةٌ بسببِ الإثم المستقرِّ في قلوبهم.

فَنُ الْحِثِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ احتِراسٌ، ويسمى التَّكْمِيلُ⁽²⁾، وهو: أن يؤتى في كلام، يومهم خلاف المقصود، بما يدفعه⁽³⁾، ويرفع عنه اللبس، ويُقَرِّبُهُ لِلْفَهْمِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعِزَّةَ مَحْمُودَةٌ وَمَذْمُومَةٌ، فَاَلْمَحْمُودَةُ طَاعَةُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁴⁾، فَلَمَّا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اتَّضَحَ الْمَعْنَى وَتَمَّ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهَا الْعِزَّةُ الْمَذْمُومَةُ الْمُؤْتَمَّ صَاحِبُهَا⁽⁵⁾.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَحَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَحَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ﴾ هي الفاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن شرطٍ مقدَّر؛ أي: إذا كانت هذه حالة المُعْرَضِ عن النَّصِحِ أَنْفَةً وَتَكَبُّراً، وَأَرَدَتْ بَيَانَ عَاقِبَتِهِ، فَأَقُولُ لَك: حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ، وَهَذَا اسْتِعْظَامٌ لِمَا حَلَّ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ: كَفَاكَ مَا

تعيين نوع العِزَّة
بالقيد السياقي

دور الفاء
الفصيحة في
الإفصاح عن
الشرط للمقدَّر

(1) أبو حيان، البحر للحيط: 2/332، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/644.

(2) وقد سمى أبو حيان التَّكْمِيلَ تنميماً فقال: "وفي قوله: ﴿أَخَذْتَهُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ﴾، نوع من البديع يسمى التَّتْمِيمَ، وهو إرداف الكلام بكلمة يرفع عنه اللبس، وتقربه للفهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَدْعَاءَهُمْ﴾" البحر للحيط: 2/333.

(3) عبد المتعال الصَّعِيدِي، بغية الإيضاح: 2/355.

(4) أبو حيان، البحر للحيط: 332-2/333.

حَلَّ بِكَ! إِذَا اسْتَغْطَمَتْ وَعَظَّمَتْ عَلَيْهِ مَا حَلَّ بِهِ⁽¹⁾، وَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ أَي: كَافِيهِ جَهَنَّمُ جَزَاءً لَهُ، وَالْمُرَادُ بِهِ دَارُ الْعَذَابِ الَّتِي أَعَدَّ اللَّهُ لِأَعْدَائِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَجَهَنَّمُ أَخَذَتْ مِنَ التَّجَهُّمِ وَهُوَ التَّكْرُّهُ، فَتَلَقَّاهُمْ بِوَجْهِ مُتَجَهِّمٍ عَابِسٍ، جَزَاءً تَجَهُّمِ وَجُوهِهِمْ عِنْدَمَا كَانَ يُقَالُ لِأَحَدِهِمْ: ﴿أَتَيْتِ اللَّهَ﴾، وَتَجَهَّهْمُ وَجُوهُهُمْ وَتَعَبَسُ فِيهَا لِمَا يُلَاقُونَ مِنْ أَلَمِ الْعَذَابِ⁽²⁾.

تقدير القسم والمخصوص بالذم في قوله: ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾:

معنى قوله: ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أَي: بِئْسَ مَا مَهَّدُوا لِأَنْفُسِهِمْ، أَوْ بِئْسَ الْفِرَاشُ لَهُمْ⁽³⁾، الَّذِي يَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ غُرُورِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَاللَّامُ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، عَلَى تَقْدِيرٍ: وَاللَّهِ لَبِئْسَ الْمِهَادُ جَهَنَّمُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُقَسِّمُ تَأْكِيداً لِلْوَعْدِ أَنَّ الَّذِي يَرَى عِزَّتَهُ مَانِعَةً لَهُ عَنِ الْإِذْعَانِ لِلْأَمْرِ بِتَقْوَى اللَّهِ سَيَكُونُ مِهَادَهُ وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَهِيَ بِئْسَ الْمِهَادُ وَشَرُّهُ، لَا رَاحَةَ فِيهَا، وَلَا أَطْمَئِنَّانَ لِأَهْلِهَا⁽⁴⁾، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ لظهوره وتعيينه، أَي: وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ جَهَنَّمُ، وَحَسَنَ حَذْفُهُ هُنَا كَوْنُ ﴿الْمِهَادُ﴾، وَقَعَ فَاصِلَةً⁽⁵⁾.

بلاغة استعمال لفظ المهاد بدل جهنم:

المهاد: جمع مهد وهو ما يوطأ للنوم، أو أنه اسم مفرد، سُمِّيَ بِهِ الْفِرَاشُ الْمُوطَأُ لِلنَّوْمِ؛ وَهُوَ مَوْطِنُ الْهُدُوءِ وَالرَّاحَةِ وَالْمُسْتَطَابِ مِمَّا يُسْتَفْرَشُ وَيُوطَأُ⁽⁶⁾، وَالتَّعْبِيرُ عَنْ جَهَنَّمَ بِأَنَّهَا جُعِلَتْ لَهُمْ بَدَلُ مِهَادٍ يَفْتَرِشُونَهُ مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، بِهَذَا النَّوعِ الْمَغْرُورِ الْمُفْسَدِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ [آل عمران: 21]؛ لِأَنَّ الْعُصَاةَ يُلْقَوْنَ فِيهَا فَتُصَادِفُ جَنُوبَهُمْ وَظُهُورَهُمْ⁽⁷⁾.

وعيد للتكبرين
بما يناسب
غطرستهم.

التَّهَكُّمُ
والاستهزاء بمن
تعرَّزَ بإثمِهِ

(1) المصدر السابق: 2/333.

(2) الجرجاني، درج الدرر: 1/372.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/221.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير النار: 2/201.

(5) السمين، الدّر للصون: 2/356.

(6) السمين، الدّر للصون: 2/356، والبقاعي، نظم الدرر: 1/385.

(7) الراغب، تفسير الزاغب: 1/429، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/333، والسمين، المصدر السابق: 2/356، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/272.

استكمال التقسيم أركانه بذكر ﴿مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ أُتْبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾:

خُتِمَتِ الآيَةُ بخير الأصناف المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ أُتْبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، وهو الذي يهلك نفسه لاستصلاح الناس، بعد أن ذكر شرّها وهو الذي يهلك الناس لاستبقاء نفسه، وفيه إشارة إلى عظم المهمة الملقاة على عاتقهم، وهي مجاهدة الشرّ والتغلب عليه، وذلك يقتضي التعرّض للأذى، وقد يصل إلى القتل، ووجود مثل هذه الفئة من المخلصين بين الناس، رحمة عامّة للعباد، لا خاصّة بهم، وكثيراً ما ينتفع الناس بعمل المصلحين من دونهم، إذ تظهر ثمرات إصلاحهم من بعدهم⁽¹⁾.

بلغة استعمال لفظ ﴿يَشْرِى﴾ في سياق الآية:

جاء التعبير بـ﴿يَشْرِى﴾، وهو من الأضداد⁽²⁾، يقال: شرى، إذا باع، وشرى: إذا اشترى، قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] أي: باعوه⁽³⁾، ويصحّ أن يقال لكل واحدٍ من البائع والمشتري: باعٌ ومُشْتَرٍ، وذلك بحسب ما يُتصوّر في الثمن والمُثْمَنِ، فأَيُّ السلعتين تصوّرتها بصورة الثمن فأخذه باعٌ، والآخر مُشْتَرٍ، ولهذا الشأن صار البائع والمشتري من الأسماء المشتركة المعدودة في باب الأضداد⁽⁴⁾.

ويُعنى النفس ههنا: بذلّها لأوامر الله وما يرضاه⁽⁵⁾، لأخذ الأجر ورضوان الله تعالى، فهو من جهة يبيع نفسه، ومن جهة أخرى يشتري الأجر والرضا، وهو أعظم فوز يناله المؤمن في صفقة، والشراء والبيع في مثل هذا الوضع كالرمز والإشارة، وحقيقتهما وقف الإنسان نفسه على مرضاة الله ﷻ، والتحرّري في مصالح عباده⁽⁶⁾.

المُضِلِّحُونَ هُم
مَنْ يَبِيعُونَ
أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ
تَعَالَى

قُوَّةُ اجْتِمَاعٍ
مَعْنَوِيٍّ
الأضداد؛ البيع
والشراء في
اللفظ الواحد

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير للنار: 2/204.

(2) الأضداد: اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة، يُنظر: السيوطي، الزهر: 1/369.

(3) الواحدي، الوسيط: 1/312.

(4) الراغب، تفسير الزاغب الأصفهاني: 1/105.

(5) الواحدي، المصدر السابق: 1/312.

(6) الراغب، تفسير الزاغب: 1/431.

جمال الاستعارة التبعية في لفظ: ﴿يَشْرَى﴾:

استعمال لفظ ﴿يَشْرَى﴾ في البذل مجازاً، حيث شبه بذل النفس بالبيع، على سبيل الاستعارة التبعية، فالبذل كالبائع، والله المشتري، والثمن مرضاة الله، وهو أغلى الأثمان، والمعنى: ومن الناس من يبذل نفسه للهلاك ابتغاء مرضاة الله؛ أي: هلاكاً في نصر الدين، وهذا أعلى درجات الإيمان، لأن النفس أغلى ما عند الإنسان⁽¹⁾، والآية الكريمة عامة تتناول كل من أطاع الله تعالى، وبذل نفسه في سبيل إعلاء كلمته، ويدخل في ذلك من نزلت فيهم الآية من باب أولى؛ فقد أورد المفسرون روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية منها أنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وغيره من الصحابة⁽²⁾ رضي الله عنهم؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر لدى أهل العلم⁽³⁾.

سر التعبير بالمصدر الميمي ﴿مَرْضَاتٍ﴾ دون المصدر (رضا):

﴿مَرْضَاتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ابْتَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، مصدر ميمي من رضي، بمعنى الرضا، وجاء التعبير بالمصدر الميمي ﴿مَرْضَاتٍ﴾، دون المصدر الأصلي (رضا)، لما في المصدر الميمي من معنى زائد عن المصدر، وهو دلالته على الذات والإشعار بنهاية الحدث بالإضافة لدلالته على الحدث كما هو في غالب المصادر؛ فعند التأمل يلحظ أن المصدر الميمي، يتضمن حدثاً كما تضمنه غيره من المصادر الأصلية للأفعال، بيد أنه في الغالب يزيد عليها في دلالته على الذات إضافة إلى دلالته على الحدث الذي يشاركه فيه غيره من المصادر، فكلمة ﴿مُنْقَلَبٍ﴾ مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٢٧) [الشعراء: 227] لا تطابق (انقلاب)؛ فالانقلاب حدث مجرد، والمنقلب يحمل معه ذاتاً تنقلب، والمساق في قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾^(٣٠) [القيامة: 30] يختلف عن قولنا:

توق المؤمن إلى
مرضاة الله غاية
المطلب في هذه
الحياة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/273.

(2) الروايات التي أوردها الطبري في تفسيره: 3/591 وما بعدها؛ وابن كثير في تفسيره: 1/564 - 565.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/594.

إِلَيْهِ السُّوقُ؛ فالمساقُ يحمل معه ذاتاً تُساق، بخلاف السُّوق الذي يدلّ على مجرد الحدث وهو السُّوق.

ومن ناحية أخرى عند التعبير بالمصادر الميمية دون غيرها من المصادر الأصلية للأفعال، فإن المصادر الميمية مشعرةً بالنهاية لما تضمّنته من معانٍ، فعندما نقرأ قول الله ﷻ: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِ ۝٣٦﴾ [الرعد: 36] نجد أن ﴿مَقَابِ﴾ مشعرةٌ بنهاية الأوب، بخلاف (الإياب) الذي يدلّ على مجرد الرجوع دون إشعارٍ بمنتهاه، ومثله المنقلب والانقلاب، فإن المنقلب يعني خاتمة الأمر وعاقبته، أما الانقلاب فإنه يعني مجرد التغير، يقول تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227] أي: عاقبة أمرهم ونهايتهم⁽¹⁾، وفي ﴿مَرْضَاتٍ﴾ يدرك السامع المعنى المصدرى واقعاً قائماً متحققاً في الوجود، لملاحظة الذات مع الحدث، أما المصدر غير الميمي فيصور المعنى مجرداً، كما أن التعبير بـ﴿مَرْضَاتٍ﴾ يُشعر بإمكان الوصول إلى منتهى الرضا، وعلى ذلك يكون معنى ﴿أَتَبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أنهم يبيعون أنفسهم طالبين طلباً موثقاً رضا الله سبحانه حقيقة واقعة مؤكدة، ويتصورون رضاه سبحانه حقيقة قائمة قد حلت بهم، فيشتد طلبهم، وافتدائهم للحق بأموالهم وأنفسهم كما أن نهاية الرضا تتحقق للشهداء في جوار الله تعالى، كما أخبر النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»⁽²⁾.

بلاغة الفاصلة القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾:

إظهار ما حقه الإضمار
عُدل عن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ إلى وضع اسم الجلالة فلم يقل: وهو رؤوف بالعباد؛ لإدخال المهابة وتربيتها في قلب السامع، ولبناء الصفة على اسم الجلالة، فيعطيها مهابة وجلالاً.

(1) فاضل الشامزائي، معاني الأنبياء العربية، ص: 31-32.

(2) أخرجه البخاري، حديث رقم: (7518)، ومسلم، حديث رقم: (2829).

ذكرُ صفةِ
الرَّافَةِ كنايةً عن
الإحسانِ

جاء تأكيدُ الخبر: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ باسميّة الجملة من قوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾؛ للإشعار بأنَّ من باع نفسه لله تعالى فحقيقٌ بأشدِّ أنواعِ الرَّحمة، وحرِيٌّ أن يكونَ في عباد الله المقبولين، وصفةً ﴿رَءُوفٌ﴾ من صيغِ المبالغة على وزن: فَعُول، بمعنى فاعل، أي: كثير الرَّافَةِ وهي أشدُّ الرَّحمة، وتذييلُ الآية بروؤف: أي: رؤوفٌ بِالْعِبَادِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، فالرَّافَةُ كنايةٌ عَن لَازِمِهَا، وهو إيتاءُ الخَيْرَاتِ كَالرَّحْمَةِ⁽¹⁾، ونَبَّه بهذا إلى أنَّ الإنسانَ في بيعِ نفسه منه تعالى يدخلُ في ملكٍ من هو أَرَفُ به من نفسه، وأولى به من ذاته⁽²⁾، وجاء هذا الختمُ بِالْوَعْدِ المُبَشِّرِ لعباده الأخيار، بِحُسْنِ الثَّوَابِ، وَجَزِيلِ الْمَاِبِ، وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِالرَّافَةِ الَّتِي هِيَ سَبَبٌ لِدَلِكْ، فَصَارَ ذَلِكَ كِنَايَةً عَن إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّ رَافَتَهُ بِهِمْ تَسْتَدْعِي جَمِيعَ أَنْوَاعِ الإِحْسَانِ، وَلَوْ ذَكَرَ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الإِحْسَانِ، لَمْ يَفِدْ مَا أَفَادَهُ لَفْظُ الرَّافَةِ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ كِنَايَةً أُبْلِغَ⁽³⁾، وَمِنْ رَافَتِهِ أَنَّ النَّفْسَ وَالْمَالَ لَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْتَرِي مُلْكَهُ بِمُلْكِهِ فَضْلاً مِنْهُ وَرَحمةً وَإِحْسَاناً⁽⁴⁾، "ومن رافة الله بعباده أن جعل النعيم الدائم في الجنة جزاءً على العمل القليل المنقطع، ومن رافته أن تقبل توبة عبده المذنب، ومن رافته أن نفس العباد وأموالهم ملكه، ثم إنه تعالى يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً"⁽⁵⁾.

الألف واللام في العباد للاستغراق؛ لِأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ بِجَمِيعِ عِبَادِهِ وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا، أَوْ تَكُونُ لِلْعَهْدِ، أَيُّ: رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَشْرُونَ أَنْفُسَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ⁽⁶⁾.

(1) المصدر السابق.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/431.

(3) أبو حيان، البحر المحیط: 2/336.

(4) الزاوي، التفسير الكبير: 5/351.

(5) الدَّزَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/483.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/273.

معنى الألف
واللام في العباد
إمَّا للاستغراق
أَو العهد

العدول عن الإضمار إلى الإظهار، في قوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾:

وفي الآية عدولٌ؛ عدل عن الإضمار (بهم) إلى الإظهار ﴿بِالْعِبَادِ﴾؛ وحسن هذا العدول شيئان:

أحدهما: أَنَّ لَفْظَ: الْعِبَادِ، لَهُ فِي اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ تَشْرِيفٌ واختصاصٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الإسراء: 65] والثاني: مَجِيءُ لَفْظَةِ ﴿بِالْعِبَادِ﴾ فاصلة؛ لِأَنَّ قَبْلَهُ: ﴿الْفَسَادَ﴾، ﴿الْمِهَادُ﴾ فَنَاسَبَ: ﴿بِالْعِبَادِ﴾⁽¹⁾، وهو سجعٌ متوازٍ، للاتِّفَاقِ فِي الْوِزْنِ وَالتَّخْفِيفِ.

وفي هذه الآية، والتي قبلها من علم البديع: حُسْنُ التَّقْسِيمِ؛ وهو: أن يتعلّق بالكلام معنى له أقسامٌ متعدّدة، فيستوعبها في الذكر، ويأتي عليها، ويسمّى الاستيعاب⁽²⁾.

اشتمال الآية
على حُسن
التقسيم البديع
مما يسمّى
الاستيعاب في
علم البديع

(1) أبو حيّان، المصدر السابق: 2/337.

(2) الغلوّيّ، الطراز: 3/59.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.

مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.

ردمك : 978-9948-798-54-5

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

التقييم الدولي : 978-9948-798-54-5

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»